٤

الحب والجنس

الحب والجنس :

لم يخلط العرب بين الحب والجنس ، أو بين المحبة والاشتهاء . ظل الحب عاطفة تقوم على الميل القلبى ، المقرون بالايثار ، ميل يتنفس فى اللقاء العف ، والتأمل فى حركة النفس ، والرغبة فى توحد الشعور نحو الأشياء ، وايثار ما به يصير المحبوب أكثر سعادة وبهاء وأنسا ، وإن يكن المحب - بسبب من ذلك - يعانى ضروبا من الحرمان والشقاء . لم يكن الاشتهاء أو الاعجاب الجنسى جزءًا من مفهوم الحب ، ولا عاملا من عوامل بقائه ، بل على العكس ، لقد كانوا يعتقدون أن النكاح يفسد الحب ويقضى عليه ، وقد قالت أعرابية تعلق على ما وصف لها من فعل العشاق : ليس هذا بعاشق ولكنه طالب ولد !! وقال أعرابى تعليقا على الفعل الجنسى : هذا مالا تفعله بالعدو ، فكيف بالصديق !! وفى حين أغفل ابن داود المفهوم المادى للذة ، فإن الوشاء من بعده رفض اعتبار التواصل الجسدى من « مسامير الحب » ، وهذا النفس المتسلل من التصور العذرى يهدف إلى استدامة الصلة وتوثيقها بين الحبيبين ، إذ لا يستمر الاعجاب الجسدى على حال ، ولا يؤدى إلاّ إلى راحة وقتية ، قد يعقبها ندم ، أو اشباع وزهد ، بل قد تعقبها الكراهية ذاتها ... فليس أمام الحريص على استدامة الفكرة والمبدأ -كابن داود ، والمبقى على علاقات اجتماعية صافية مستقرة ، وهو ما هدف إليه الوشاء من دعوته إلى التزام شرائط الظرف ، ليس أمامهما إلاّ صرف الانتباه عن الجانب الجسدى ، والتوجه إلى العقل والروح وروعة الاحساس بالمشاركة فى الشعور . وهذا غير الحرمان ، حيث لا يضمر الاشتهاء أصلا ، أو لا يتيح له أن يتحكم فيه ويوجه أفكاره ، أو سلوكه . فهل كان هذا التصور لعلاقة الحب بمثابة ايحاء وتأثير مستمر على وجدان المحبين ، أن يتباعدوا عن كل ما يمكن أن تكون فيه ملامح الاشتهاء أو رائحة الجنس ، مما يدفع بهم إلى التعثر فى سعيهم للاقتران بمحبوباتهم ، اقتران ينتهى فى حال تمامه إلى لقاء جنسى ؟ ! إن قائمة العشاق العذريين الطويلة ، وما انتهى إليه الحال بشكل شبه دائم يعزز ما نراه من أن المحب - انطلاقا من فهمه هذا لمعنى الحب ، ومجموعة أخرى من الظروف - يعيش حالة من الاضطراب النفسى الذى يجعله يسعى إلى الزواج من حبيبته ، ويتمنى - دون وعى منه - ألاّ يتم هذا الزواج الذى سينتقص حالة حبه فى كماله ونقائه !! وحين نتوقف عند المحبين العذريين بصفة خاصة فإننا سنعنى باكتشاف

الظروف التى تم فيها اللقاء الأول بين المحب والمحبوب ،وإلى أى مدى كان الاعجاب الجسدى عاملا من عوامل تأكيد هذا اللقاء واستدامة المشاعر التى استبتت فيه .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر أثر هذا التصور جليا فى بعض الدراسات العاطفية ، وظهر تصور آخر لم يأخذ بهذه التفرقة بين الحب والجنس ، على الرغم من اقرار الاستعمال اللغوى نفسه لها ، وحين يوجه سؤال إلى أبى حيان عن الفرق بين المحبة والشهوة ، فإنه يجيب بأن الشهوة ألصق بالطبيعة ،أما المحبة فإنها أصدر عن النفس الفاضلة ، وهما انفعالان ، إلاّ أن أحد الانفعالين أشد تأثرا ، وهو انفعال الشهوة ، وأنهما يتداخلان كثيرا بالاستعمال ، لأن اللغة جارية على التوسع[1] . ومع هذا فقد قيل « المحبون العذريون » ، وقيل « فساق العشاق » دون العكس . ولهذا دلالته فى التفرقة بين الحب والعشق .

وقبل أن نمضى إلى تعريف الحب ، والعشق ، يحسن أن نتأمل هذا الخبر الذى يرويه داود الانطاكى عن عبد الله بن عجلان ، وهو من عشاق العصر الجاهلى ، وصاحبته هند . وينقل الانطاكى عن « النزهة » أنه عذرى ، ويقرر أنه « ليس كذلك » ، وإن كان يقرر أيضا أن ابن عجلان كابد المحبة وغصة العشق ثلاثين سنة ، أما كيف رآها وعلقها فيقول :

« إن سبب اعتلاقه بها ، أنه خرج يوما إلى شعب من نجد ينشد ضالة ، فشارف ماء يقال له نهر غسان ، وكانت بنات العرب تقصده فتخلع ثيابها وتغتسل فيه ، فلما علا ربوة تشرف على النهر المذكور ورآهن على تلك الحالة ، فمكث ينظر إليهن مستخفيا ، فصعدن حتى بقيت هند ، وكانت طويلة الشعر ، فأخذت تمشطه وتسبله على بدنها ، وهو يتأمل شفوف بياض جسمها من خلال سواد الشعر ، ونهض ليركب راحلته فعجز ... ثم قال : هذه والله الضالة التى لا ترد ، ثم عاد وقد تمكن الهوى منه ، فأخبر صديقًا له ، فقال : اكتم ما بك واخطبها إلى أبيها فإنه يزوجك بها ، وإن اشهرت عشقها حُرمتها ، ففعل ، وخطبها فأجيب ، وتزوج بها ، وأقاما على أحسن حال ..[2] .

ثم تتداخل قصة عشق ابن عجلان بعد ذلك مع قصة مجنون بنى عامر تارة ، ومع قصة قيس بن ذريح صاحب لبنى تارة أخرى ، فهند ، مثل لبنى ، لم تنجب ، وبقيت كذلك ثمانية أعوام ، ومن ثم راح الأب الثرى يلح على ولده أن يطلقها ، والفتى يقاوم للاحتفاظ بحبيبته ،

---

(١) الامتاع والمؤانسة جـ ٣ ص ١٠٥ ، ١٠٦

(٢) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص ١٤٠ ، ١٤١ ، وقد سبق ابن الجوزى فضنّ على الشاعر « كثير » بصفة العذرية ، لأن عزة –كما جاء فى أخباره– قد تنكرت له فغازلها على أنها امرأة أخرى . انظر ذم الهوى ص ٤٤٤ وما بعدها .

وإذا كان والد قيس بن ذريح قد وقف فى حر الشمس بعد أن حلف لا يكنه سقف بيت أبدا حتى يطلق لبنى[1] ، فإن والد عبد الله بن عجلان بلغه يوما أن ولده قد تمكن السكر منه ، فعدها فرصة ، وأرسل إليه « فلما جلس مع أبيه وقد عرف أكابر العرب حاله فأقبلوا يعنفونه ويتناوشونه من كل مكان حتى استحى فطلقها[2] ، وهكذا اختلف السبب بين العاشق الاسلامى ، والعاشق الجاهلى ، ولكن النتيجة واحدة ،فقد أحسّ كل منهما لوعة الندم وعذاب الفراق ، وحاول التراجع وهيهات ، فمرض ، وذبحت لابن عجلان شاة بإشارة من امرأة عجوز ، ونزع قلبها ، كما حدث مع المجنون ... وقد التقى بصاحبته عند زوجها ، كما التقى المجنون بليلى فى منازل ورد الثقفى ، وماتا معا ...

فلماذا ضنّ الانطاكى على ابن عجلان بصفة العذرية ، واعتبرها قصة حب عادية ؟ أغلب الظن أنه لاحظ البداية ، وكانت مشاهدة هند عريانة هى سبب التعلق بها ، ثم انه استطاع أن يكتم ويتزوج ... وهكذا لم يشفع له كل ما لاقى من عذاب بعد ذلك !

على أن تنزيه الحب عن الاعجاب الجنسى أو الاشتهاء ، والرغبة فى الاستمتاع بجمال الأنثى ، ظل بمثابة قضية نظرية ، أو موقف أخلاقى تقره الأعراف المتوارثة ، دون أن يوجه السلوك العام ، الذى تدفق فى طريقه التلقائى ، ينظر إلى الحب على أنه نوع من التجاذب بين الذكر والأنثى يقوم على رغبة متبادلة فى الاتحاد . وسيكون هذا الفارق بين التصور والسلوك ماثلا أحيانا فى الفارق بين الحب والعشق ، وقد لا يقره فقيه مثل ابن داود ، ولكن سيقره بوضوح فقيه آخر مثل ابن حزم ، وسيعلى من شأنه ، من قبلهما ، رجل لا يسهل العبور به ، وهو الجاحظ .

وقد روى عن فضليات النساء ، وزوجات المشاهير ، فى الجاهلية والاسلام ، أخبار وقصص ، تؤكد سيطرة النازع الجنسى ، وتأثيره على العلاقة بين الذكر والأنثى ، ولم تكن احداهن ترى فى ذلك مساسا بشرف محتدها أو سمعتها الخاصة مادامت تصير إلى من يحبها وتحبه بالزواج . وقد يزعجنا فى عصرنا هذا أن نقرأ بعض الأسماء فى صدر الاسلام مثلا ،فنجد المرأة قد تزوجت ثلاث مرات ، على التابع أو أكثر ، وليس هذا وقفا على عائشة بنت طلحة أو سكينة بنت الحسين ، انه أمر يتكرر كثيرا ، فى حين أن مجتمعنا لا يتقبل مثل هذا العمل إلاّ بالنسبة لفئات معينة يتسامح الناس معها لأسباب متعددة .

---

(١) الأغانى جـ ٩ ص ١٨٣ .

(٢) تزيين الأسواق فى أخبار العشاق ص ١٤٢ وتأمل وقوف الأب فى الشمس لاكراهه على الطلاق ، وفى مراحل الاسلام الأولى وقف بعض الآباء فى الشمس لاكراه أبنائهم على العودة إلى الوثنية . أما انتهاز فرصة السكر فهو ما يوائق المجتمع الجاهلى !!

وباستطاعتنا الآن أن نقرأ هذه الأخبار ، ونتأمل مغزاها :

* يروى صاحب « أخبار النساء » هذا الخبر : كانت ضباعة بنت عامر تحت عبد الله بن جدعان ، فمكثت عنده زمانا لا تلد ، فأرسل إليها هشام بن المغيرة : ما تصنعين بهذا الشيخ الكبير الذى لا يولد له ؟ فقولى له فليطلقك . فطلبت من زوجها الطلاق ، فقال : إنى أخاف أن طلقتك تتزوجى هشام بن المغيرة ! قالت له : فإن لك علىّ ألاّ أفعل هذا . قال لها : فإن فعلت فإن عليك مائة من الابل تنحرينها ، وتنسجين ثوبا يقطع ما بين الأخشبين ، وتطوفين بالبيت عريانة . قالت : لا أطيق ذلك . وأرسلت إلى هشام فأخبرته ، فأرسل إليها : ما أهون ذلك ، وما يكن بك من ذلك ، أنا أيسر من قريش فى المال ، ونسائى أكثر النساء فى البطحاء ، وأنت أجمل النساء ولا تعابين فى عريك ، فلا تأبى ذلك عليه ، فقالت لابن جدعان ؛ طلقنى ، فإن تزوجت هشام فعلّى ما قلت . فطلقها بعد استيثاقه منها ، فتزوجها هشام ، فنحر عنها مائة جزور ، وأمر نساءه فنسجن ثوبا يملأ ما بين الأخشبين[1] ، وعن الطوفان عريانة ، قال هشام : فأنا اسأل قريشا أن تخلى لك المسجد ، فتطوفين بعد الفجر بسدفة ولا يراك أحد[2] .

* وتتكرر هذه القصة أكثر من مرة : يشعر الزوج بدبيب الموت ، وتشتعل نار الغيرة من انتقال زوجته إلى رجل معيّن ، فيستحلفها أن تفى له بالاً تتزوج من هذا الشخص بالذات ، فتحلف ، ثم يكون التحلل من اليمين ـ ويتم الزواج[3] !! هكذا حلفت فاطمة بنت القاسم بن على بن جعفر بن أبى طالب لزوجها حمزة بن عبد الله بن الزبير ، ثم خطبها طلحة بن عمر ، فتزوجته وعوضها ما فقدت من رقيق ومال . وحلفت أم هشام لزوجها عبد الرحمن بن هشام ، فلما انقضت عدتها تزوجت عمر بن عبد العزيز[4] . بل نجد هذا يحدث حتى فى علاقة السيد بالجارية أو القينة ، وقد حدث أن تخوف الهادى من أن تصير جاريته إلى أخيه الرشيد ، فحاول أن يحول دون ذلك ، ولكن هيهات !!

ويعطى أبو الفرج الأصفهانى أخبار عائشة بنت طلحة اهتمامًا خاصًا ، ومن خلال ذلك نتبين ملامح واتجاهات العلاقة العاطفية والسلوكية بين الرجل والمرأة فى مستوى هذه الطبقة

---

(١) أخبار النساء ص ١٤٨ .

(٢) أشعار النساء ص ١٠٤ ، ١٠٥ وانظر الهامش أيضا ، وانظر : كتاب القيان ص ١٥١

(٣) انظر مثلا : أخبار النساءص ١٤٩ ، والعقد الفريد جـ ٦ ص ٩١ ، وسياق الخبر يدل على أن فاطمة أقسمت ان هى تزوجت من قصده زوجها أن تتصدق بكل ما تملك ، وتعتق من لديها من عبيد أو اماء ، وقد عوضها الزوج الجديد عن ذلك كله ، وانظر القصة أيضا فى ذم الهوى ص ٦٤٨ .

(٤) أخبار النساء ص ١٤٠ ، ١٥٠ .

من أشراف قريش بالذات ؛ وهي من بنى تيْم ، وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر ، أما عائشة ، فكما يصفها الأصفهانى : كانت لا تستر وجهها من أحد ، فعاتبها مصعب (بن الزبير الزوج الثانى) فى ذلك ، فقالت : إن الله تعالى وسمنى بميسم جمال أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم ، فما كنت لأستره ، ووالله ما فى وضمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

ويروى قصة زواجها من أول أزواجها وكيف تمت ، وهو عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى بكر ، فيذكر أن عبد الله ذهب إلى عزة الميلاء – وهى امرأة يألفها الأشراف وغيرهم من أهل المروءات ، وكانت من أظرف الناس وأعلمهم بأمور النساء – فأخبرها أنه خطب عائشة بنت طلحة ، وأنه يريد أن تصف له ما استتر من جسمها ، فذهبت الميلاء إليها واحتالت حتى تمكنت من رؤيتها ، وعادت تصف حسنها ، وعيوبها أيضا !!

وحدث أن دعت يوما نسوة من قريش ، وكانت قد تزوجت بمصعب بن الزبير بعد وفاة عبد الله ، فلما جئنها أجلستهن فى مجلس نضد فيه الريحان والفواكه والطيب والمجمر ، وجاءت عزة الميلاء تطرب المجلس بغنائها ، فغنت فى شعر امرىء القيس :

وثغر أغر شتيت النبات ... لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به ... وبالظن يقضى عليك الحكم

وكان مصعب قريبا منهن ومعه إخوان له ، فقام فانتقل حتى دنا منهن والستور مسبلة ، فصاح : يا هذه إنا قد ذقناه فوجدناه على ما وصفت .

وبعد أن قتل مصعب خطبها بشر بن مروان ، فقدم من الشام عمر بن عبيد الله بن معمر التيمى (فهو تيمى مثلها) فبلغه ذلك ، فأرسل إليها مع جارية من جواريها : يقرئك السلام ابن عمك ، ويقول لك : أنا خير من هذا المبسور المطحول ، وأنا ابن عمك وأحق بك ، وإن تزوجت بك ملأت بيتك خيرا ، فتزوجته . ولا يتردد الأصفهانى فى وصف ليلة الزفاف ، فيذكر كيف قدم عمر ، فوجد خوانًا ممتدًا فأكل كل ما عليه ، ثم صلى فأطال الصلاة ، ثم دخل على عروسه ، ونكتفى بقول عائشة لزوجها الجديد فى صباح ليلة العرس :

قد رأيناك فلم تحل لنا ... وبلوناك فلم نرض الخبر

ويتوغل الأصفهانى فى وصف سلوكها الجنسى مع أزواجها ، فينقل عن المدائنى قوله : قالت امرأة : كنت عند عائشة بنت طلحة ، فقيل لها : قد جاء الأمير فتنحيت ، ودخل عمر بن عبيد الله ، وكنت بحيث أسمع كلامهما ، فوقع عليها ، فجاءت بالعجائب ، ثم خرج ، فقلت لها : أنت فى نفسك وموضعك وشرفك تفعلين هذا !! فقالت : انا نتشهى

هذه الفحول بكل ما حركها وكل ما قدرنا عليه[1] . ويروى الجاحظ هذا الخبر بألفاظ أكثر صراحة وتحديدا[2] .

ما الذى نريد أن ننتهى إليه من مثل هذه الأخبار ؟

نريد أكثر من شيء فى الحقيقة . وأول ما نهدف إليه أن ننفى أن تكون تلك الصورة المنتشرة فى الدراسات العربية عن الحب - وقد ألمحنا إليها من قبل - ونعنى الصورة الشاحبة الحزينة المضمرة لليأس المتوقعة للاخفاق التى تجد راحتها فى التأمل والشكوى وعذاب الاحساس بالهجر ، هذه الصورة التى لا تخلو من علامات العصابية ، والتى هى أكثر انتشارا على ألسنة الشعراء وأقلام الباحثين فى الحب ، ليست هى الصورة الوحيدة ، أو المتحكمة فى أخلاق الناس وسلوكهم ، مع التسليم بأهمية نشاط المخيلة القائم على مجافاة الواقع والتسامى عليه ، تساميا هو ألصق بتلك الصورة الحزينة التى أشرنا إلى ملامحها العامة . ولقد تكرر مشهد الزوج الشغوف بزوجته حتى تصير كل همه عند الوفاة ، وهو يعرف أنها جميلة ، وأنها موضع اعجاب ، بل يدرك بحدسه من هو الشخص القادم إليها بعد رحيله ، لأنه يوازيها شرفا ، وليس يبعد أن يكون قد سمع عنه أكثر من ذلك ، كشغف قديم ، أو تعلق حديث .

وتكثر الدلالات النفسية والاجتماعية فى أخبار عائشة بنت طلحة ، التى رفضت الحجاب ودافعت عن السفور ، وكانت جميلة وتعرف أنها كذلك ، وتتقاضى من أزواجها ثمن هذا الجمال فنونا من الدلال والتيه ، ورغبة فى الشهرة وأن تكون حديث الناس ، وأن يتاح لها من الحركة الحرة فى لقاء الشعراء وأمثالهم ما يليق بطموح الشرف حين يتحلى بالجمال والثراء معا . ولقد كانت الخاطبة - وكانت تسمى الدلالة - تقوم بدور يتجاوز ما تقوم به فى أيامنا ، وإن كان دورها قد انحسر أو انتهى الآن ، كانت ترى من المخطوبة ما ليس للخاطب أن يراه ، وتقدم له تقريرًا وصفيًا أمينًا بما رأت . وكان الزوج - على شرفه وعلو رتبته - لا يجد حرجا فى أن يظهر عواطفه علانية ، وأن يفقد صوابه متغزلا بزوجته فى مجلس أصدقائه ، بل أن يصطحب زوجته إلى خلوة فى وجود صديقتها وأن تسمع العجائب بينهما !! ولقد اخترنا هذه الأخبار من العصر الاسلامى - باستثناء ضباعة - فإنه العصر الذى شهد المحبين العذريين وشهداء العشق . وهذا يعنى فى النهاية أن جميع أنماط الحب ومستوياته كانت موجودة ، متعايشة فى العصر الواحد وفى البيئة الواحدة ، بل أحيانا فى النفس الواحدة .

---

(١) الأغانى جـ ١١ ص ١٧٦ وما بعدها .

(٢) رسالة : مفاخرة الجوارى والغلمان ص ١٢٩ .

وإذا كانت بعض القبائل قد شهرت بالعشق ، وبالموت حبا ، مثل عذرة ، فإن هناك قبائل أخرى قد شهرت بالنكاح ، وهم بنو الأذلغ ، وينسب إليهم من هذه صفته ، فيقال : أذلغى[1] ، كما أن هناك قبائل قد عرفت بالجمال ، أو جمال نسائها على وجه التحديد ، جمال القدود أو العيون أو السيقان أو الأرداف ، وقد تغضب الفتاة لسمعة قبيلتها الجمالية ،فتدافع عنها بأن تكشف عن جسدها حتى تبهر وتقنع . وهذا أبو نواس يروى حكاية نادرة حدثت له بمنقطع من أرض فزارة ، فألجأه المطر مع صاحبه إلى خباء على بابه جارية مبرقعة ، فحرض أبو نواس صاحبه أن يقول قولا يجعل الفتاة ترفع البرقع ، فارتجل بيتين ذم فيهما ما يخفى البرقع من قبح وشناعة ، فغابت الفتاة قليلا ثم عادت وقد كشفت البرقع وتقنعت بخمار أسود فاهتز أبو نواس لحسنها ، ومن ثم راح صاحبه يحرض الفتاة أن تكشف المزيد فقطعت الفتاة عليهما الطريق وقالت :

لأنا أشبه بقول الشاعر :

منعمة حـــوراء يجرى وشاحها ... على كشح مرتج الروادف أهضم

خزاعية الأطراف كندية الحشـــا ... فزارية العينين طـــائية الفـــم

وقد يتمادى أبو نواس فى مزاعمه ، وهو ليس بثقة ، ومع هذا فإن للخبر دلالته الجمالية[2] .

الجاحظ .. والحب الطبيعى :

ونحن نقصد إلى الجاحظ قبل غيره للكشف عن طبيعة الحب ومفهومه كما يراه ، رعاية للسبق الزمنى ، ولأنه الأكثر قربا من تقديم مفهوم للحب يستطيع أن يحتوى هذه الأخبار التى قرأنا وعرفنا فى الفقرة السابقة . ولسنا بحاجة إلى أن نكرر فنذكر بعقليته الجدلية وقدرته على الرصد والتقاط الملامح الدقيقة الفارقة ، وارتباط أوصافه وتحليلاته بالواقع المشاهد ، وبعده عن التعويل على التأمل والمثالية .

وآراء الجاحظ مبثوثة فى ثلاث رسائل أشرنا إليها من قبل ، وفى تضاعيف كتاب « الحيوان » حيث يوضع الانسان طرفا فى مقارنة مستمرة مع سائر المخلوقات . وهذا الارتباط بالواقع الاجتماعى وحقيقة التكوين الفطرى للانسان ، ووضعه موضع الاعتبار فى تحليل عاطفة الحب ورصد ملامحها ، هو الذى جعلنا نطلق عليه « الحب الطبيعى » ، فلم نجعله فى مقابل الحب الشاذ أو غير السوى ، وإنما قصدنا شيئا يقترب من مفهوم « الطبيعية » فى مذاهب الأدب ،

---

(١) جاء فى لسان العرب : ذلغ الرجل ذلغا : تشققت شفتاه ، ورجل أذلغ : غليظ الشفة ، وبنو الأذلغ : حى من عامر .انظر لسان العرب - مادة : ذلغ .

(٢) أخبار النساء ص ١٥٨ - ١٦١

حيث يكشف الأديب عن الدوافع ، ويصور الأشياء دون محاولة تجميلها أو إخفاء جذورها مهما كانت فجة ، أو منافية للأخلاق أو الأعراف الاجتماعية .

ويبدأ الجاحظ أكثر من مرة بداية جريئة ، يواجه الوقائع والألفاظ بصراحة ومباشرة ، لا يكنى أو يورى . وحين يتطرق إلى علاقة الذكر بالأنثى يقرر أن اباحة المتعة دون قيد هى الأصل ، فالفلك وجميع ما تحتويه أقطار الأرض ، وكل ما تقله أكنافها للانسان خول ومتاع إلى حين . إلاّ أن أقرب ما سخر له من روحه وألطفه عند نفسه « الأنثى » فإنها خلقت له ليسكن إليها ، « ولولا المحنة والبلوى فى تحريم ما حرم وتحليل ما أحل ، وتخليص المواليد من شبهات الاشتراك فيها ، وحصول المواريث فى أيدى الأعقاب ، لم يكن واحد أحق بواحدة منهن من الآخر ، كما ليس بعض السوام أحق برعي مواقع السحاب من بعض ، ولكان الأمر كما قالت المجوس : إن للرجل الأقرب فالأقرب رحمًا وسببًا منهن ، إلاّ أن الفرض وقع بالامتحان فخصّ المطلق ... وكل شيء لم يوجد محرما فى كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فمباح مطلق ، وليس على استقباح الناس واستحسانهم قياس ما لم نخرج من التحريم دليلا على حسنه ، وداعيا إلى حلال[1] » .

إن الجاحظ ، فى العلاقة بين الذكر والأنثى ، ينكر الوازع الطبيعى فى وجود المحارم ، ويرى أن الشيوعية الجنسية هى الأصل ، كما أنها الأصل فى كل ما تحويه أقطار الأرض من الأشياء المادية ، ويرى أن ما حرم من النكاح إنما حرم بالشرع وليس بالطبع . ولقد أدرك تناقضه مع مبدأ من أهم مبادئ الاعتزال ، وهو القول بالتحسين والتقبيح العقليين ؛ فكان هذا الاستدراك فى آخر الاقتباس إذ أرجع الأمر إلى الدليل ، وهو ثمرة النظر العقلى ، وليس مجرد استحسان الناس أو استقباحهم ، وهما تقليد سلوكى أو عادة لا دخل للعقل فيها . ومع هذا فإن الجاحظ سيلاحظ أن بعض الطيور الراقية تحرم بعض العلاقات حين تعرف الحب ، فتخص ذكرًا واحدًا بالحظوة وتمتنع على غيره[2] .

ويطيل الجاحظ الاحتجاج لإباحة النظر ، ويراه حلالا ، إذ أثر مجالسة أبناء الصحابة للنساء لتبادل الأحاديث ، فلا محادثة إلاّ ومعها مالا يحصى عدده من النظر ، وكان خليفة المسلمين يجلس وجارية تقف على رأسه تذب عنه وتروحه ، وحيث يحق للمرأة المعنسة أن تبرز للرجال فإن ما يحل لها معنسة لا يحرم عليها شابة « ولكنه أمر أفرط فيه المتعدون حد الغيرة إلى سوء الخلق وضيق العطن ، فصار عندهم كالحق الواجب[3] » وكذلك يستشهد بحل النظر إلى الرقيق

---

(١) كتاب القيان -١٤٦ ، ١٤٧ .

(٢) الحيوان جـ ٣ ص ١٦٧ والمثل عن حمامة أنثى تأبت طويلا على أفراخها وأحفادها وعاشت لذكر واحد ، ثم خضعت حين قام أحد الخدم بترحيل الذكر ، فقاومت شهرا ، ثم سكنت .

(٣) كتاب القيان – ص ١٥٧ .

للشراء والبيع ، وهم بشر ، وللناس فيهم مآرب ، وانتقاص حريتهم لا يعنى عدم تعلق الشهوة بهم ، فربما كان العكس هو الصحيح .

ويرصد الجاحظ اختلاف التقاليد والأعراف الاجتماعية بين عصر وعصر ، وكيف يختلط ذلك بمفهوم الحل والحرمة : فقد كانوا لا يرون بأسا أن تنتقل المرأة إلى عدّة أزواج لا ينقلها عن ذلك إلاّ الموت ما دام الرجال يريدونها . وهم اليوم يكرهون هذا ويستسمجونه فى بعض ، ويعافون المرأة الحرّة إذا كانت قد نكحت زوجًا واحدًا ، ويلزمون من خطبها العار ويلحقون به اللّوم ، ويعيّرونها بذلك ، ويتحظّون الأمة وقد تداولها من لا يحصى عدده من الموالى . فمن حسّن هذا فى الاماء وقبّحه فى الحرائر ! ولم لم يغاروا فى الاماء وهنّ أمّهات الأولاد وحظايا الملوك ، وغاروا على الحرائر . ألا ترى أنّ الغيرة إذا جاوزت ما حرّم الله فهى باطل ، وأنّها بالنّساء لضعفهنّ أولع ، حتى يغرن على الظّنّ والحلم فى النّوم . وتغار المرأة على أبيها ، وتعادى امرأته وسرّيّته[1] .

ويهتم الجاحظ – فى كتاب الحيوان بخاصة – بالأعضاء الجنسية وتأثيرها على الهيئة وعلى السلوك العام ، فيصف ما يترتب على الخصاء من تغيرات بدنية ونفسية ، فصوت الخصى يتغير حتى لا يخفى على من لا يعرفه ، وإذا خصى قبل انبات الشعر لم ينبت ، وإذا كان قد نبت تساقط كله إلاّ شعر العانة ، ولا يعرض ذلك لشعر الرأس ، غير أن شعر الرأس عنده يكثر وينسدل وينقطع على طريقة شعر المرأة . وإذا مشى الخصى يشتد وقع رجله على أرض السطح ، حتى لو تفقدت وقع قدمه وقدم أخيه الفحل الذى هو أعبل منه لوجدت لوقعه ووطئه شيئا لا تجده لصاحبه ، والانسان إذا خصى طال عظمه وعرض عكس الحيوان إذا خصى ، ونتن عرقه عكس الحيوان والطير أيضا ، والخصى أكثر ذكاء من أخيه التوأم الذى لم يجر عليه الخصاء ، وأجود للخدمة ، ولكن فى الحدود المألوفة ، فليس فى الخصيان حكمة أو قدرة على الابتكار[2] .

ويهتم بالسفاد وأثره على أعمار الحيوان ، فالعصافير أقصر الطيور عمرا لأنها أكثر سفادا ، والجمل على العكس من ذلك ، أما الانسان فإنه يجمع بين الفضيلتين[3] .

ويرصد الجاحظ ألوان العلاقات الجنسية الشاذة . فى الانسان[4] والحيوان[5] كما يربط بين عفة السلوك الجنسى وسلامة العاطفة وتكامل البناء الأخلاقى ، فيقول : « وأما أنا فقد رأيت

---

(١) السابق ص ١٥٨ .
(٢) الحيوان جـ ١ ص ١٠٦ – ١١١ .
(٣) الحيوان جـ ٥ ص ٢١٨ .
(٤) الحيوان جـ ٧ ص ٢٨ ، ٢٩ .
(٥) الحيوان جـ ٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

obeikandl.com

الجفاء للأولاد شائعا فى اللواتى حملن من الحرام . ولربما ولدت من زوجها ، فيكون عطفها وتحننها كتحنن العفيفات الستيرات ، فما هو إلاّ أن تزنى أو تقحب فكأن الله لم يضرب بينها وبين ذلك الولد بشبكة رحم ، وكأنها لم تلده[1] » . فهذا الجفاء وتلك العاطفة المضطربة لا تعود إلى ولدها من الزنا وحده ، بل لأولادها جميعا !!

وكأن معاندة الطبع فى وجوب العفة تستدعى معاندة الطبع فى الحدب على الولد ، وهما ثمرة شعور واحد وصلة واحدة ، والفرق قائم فى التوافق مع الشرعية أو التمرد عليها .

ويرصد الجاحظ اختلاف النشاط الجنسى بين الذكر والأنثى : فالغلام أحدّ ما يكون وأشبق وأحرص ، عند أول بلوغه ، ثم لا يزال كذلك حتى يقطعه الكبر أو اصفاء أو تعرض له آفة . ولا تزال الجارية من لدن ادراكها وبلوغها على شبيه بمقدار واحد من ضعف الارادة . وكذلك عامتهن ، فإذا اكتهلن وبلغت المرأه حد النصف فعند ذلك يزداد ميلها ، عكس الرجل[2] .

وفى « كتاب القيان » ، ومن خلال جدل مفترض بين مبيح النظر إلى المرأة ومنكره ، يرسم الجاحظ صورة لحياة القيان فى بغداد ونشاطهن الجنسى الخفى ، المتستر بالفن ومجالس السماع وعقد صفقات شراء هؤلاء القيان ، وسيستكمل هذه الصورة مستفيدا من هذه القدرة الجدلية فى رسالته الأخرى « مفاخرة الجوارى والغلمان » ، ولا نستطيع أن نرمى الجاحظ بالتحامل على هذه الطائفة التعسة التى كانت تقدم للمتعة ، وكما يقرر هو نفسه أنه تجرى المهاداة بهن ، وهن نساء ، كما تجرى بالمتاع . لقد كان الجاحظ يرصد الواقع مضمنا هذا الوصف الأسباب الصانعة له والمؤثرة فيه دون أن يقول ذلك صراحة ؛ فالقينة مجرد متاع ، وهى مذعنة بالضرورة لمن يصل إليها ، بأى طريق كان الوصول « فأكثر من بالغ فى ثمن جارية فبالعشق ، ولعله كان ينوى فى أمرها الريبة ، ويجد هذا أسهل سبيلا إلى شفاء غليله ، ثم تعذر ذلك عليه فصار إلى الحلال وإن لم ينوه ويعرف فضله[3] » . ومن هنا جاء تعريف الجاحظ للعشق بأنه داء يصيب الروح ويشتمل على الجسم بالمجاورة ، وأنه يصعب علاجه ، متأثرا بالواقع المشاهد فى عصره ، إذ جاء التعبير باصابة الروح موحيا بالمرض والاعتلال ، وليس السمو والمبالغة فى التركيز على الفكرة أو المعنى .

ولا يحق لنا أن نغمط الجانب الفنى الرفيع ، فى صياغته وصدقه ودقته ، فلقد وصف الجاحظ عشق القيان ، وحيلهن فى الايقاع بعشاقهن ، وصفا نجد آية صدقه ماثلة فى قدرته على اختراق

---

(١) الحيوان جـ ٣ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

(٢) الحيوان جـ ٣ ٥٣٣ ، ٥٣٤ .

(٣) كتاب القيان – ص ١٦٥ – وهذا يشبه ما نشاهد فى أيامنا من زواج بعض الأثرياء « بنجوم » السينما لفترات قصيرة ، ولم يكن الزواج قابلا – من الأصل – للاستمرار !!

العصور والنفاذ إلى عصرنا ومجتمعنا لنجد الصورة ذاتها ،وبنفس الأساليب ، ونفس الدوافع لا تزال تمارسها قطاعات من النساء لسن من الجوارى بالقانون وإن حملن أخلاق الجوارى بالطبيعة ،ولسن من القيان وإنما يدعوهن المجتمع « فنانات » ولكنهن استمرار للوظيفة القديمة ، لا يحملهن عليها رق الجسد وحده ، وإنما رق الروح قبل كل شىء .

« ومن الآفة عشق القيان على كثرة فضائلهن ، وسكون النفوس إليهن ، وأنهن يجمعن للانسان من اللذات مالا يجتمع فى شىء على وجه الأرض[1] » ، وإذا كان لفظ اللذة يرتبط عند الجاحظ بالحواس ، فإن القينة ترضى ثلاث حواس : أولها النظر إلى حسنها ، والثانية سماع غنائها ، والثالثة اللمس بما يثير من الشهوة والحنين إلى الباه .

إلى هنا والأمر بين القينة وعاشقها أمر مشاركة فى الغناء والسماع والمتعة المتبادلة .. ولكن الجاحظ لا يلبث أن يهبط بالقينة إلى مستوى تجارة المتعة : إن القينة لا تكاد تخالص فى عشقها ، ولا تناصح فى ودها ؛ لأنها مكتسبة ومجبولة على نصب الشرك للمتربطين ليقعوا فى أنشوطتها ، فإذا شاهدها المشاهد رامته باللحظ ، وداعبته بالتبسم ، وغازلته فى أشعار الغناء ، ولهجت باقتراحاته ، ونشطت للشرب عند شربه ،وأظهرت الشوق إلى طول مكثه ، والصبابة لسرعة عودته ، والحزن لفراقه . فإذا أحست بأن سحرها قد نفذ فيه ، وأنه قد سقط فى الشرك ، تزيدت فيما كانت قد شرعت فيه ، وأوهمته أن الذى بها أكثر مما به منها ، ثم كاتبته تشكو إليه هواه ، وتقسم له أنها مدت الدواة بدمعتها ، وأنها لا تريد سواه ، وأنها لا تريده لماله بل لنفسه .

وحين يتم لها ذلك تبدأ القينة المرحلة الثانية بعد أن تمكنت من صاحبها ، إنها فى طريقها للاستيلاء عليه تماما ، ومن ثم تأخذ فى اخضاعه لحالات نفسية متناقضة ، فتتجنى عليه الذنوب حينا ،وتحول بينه وبين صاحباتها ، وتجافى أهله ، وحينا تقبل عليه فتسقيه أنصاف أقداحها ، وتغازله بأن تأكل نصف تفاحة تقدمها إليه ، وقد تعطيه عند انصرافه خصلة من شعرها أو قطعة من وشاحها ، ثم تبعث إليه بالهدايا ، وتنقش اسمه على خاتمها ، وتخبره أنها لا تنام شوقا إليه ، وقد تعتزل صناعة الغناء بدعوى الحرص عليه « وربما قادها التمويه إلى التصحيح : وربما شاركت صاحبها فى البلوى حتى تأتى إلى بيته ، فتمكنه من القبلة فما فوقها ، وتفرشه نفسها إن استحل ذلك منها ... وأكثر أمرها قلة المناصحة ، واستعمال الغدر والحيلة فى استنزاف ما يحويه المربوط والانتقال عنه . وربّما اجتمع عندها من مربوطيها ثلاثة أو أربعة على أنّهم يتحامون من الاجتماع ، ويتغايرون عند الالتقاء ، فتبكى لواحد بعين ، وتضحك للآخر بالأخرى ، وتغمز هذا بذاك ،

---

(١) كتاب القيان ص ١٧٠ .

وتعطى واحدًا سرّها والآخر علانيتها ، وتوهمه أنها له دون الآخر ، وأنّ الذى تظهر خلاف ضميرها . وتكتب إليهم عند الانصراف كتبا على نسخة واحدة ،تذكر لكلّ واحد منهم تبرّمها بالباقين وحرصها على الخلوة له دونهم .

فلو لم يكن لابليس شرك يقتل به ، ولا علم يدعو إليه ، ولا فتنة يستهوى بها إلاّ القيان ، لكفاه .

وليس هذا بذمّ لهنّ ، ولكنّه من فرط المدح . وقد جاء فى الأثر : « خير نسائكم السّواحر الخلاّبات[1] » .

القينة إذن – عند الجاحظ – شيطان جميل لا يمكن مقاومته ، لعبته استنزاف أموال العشاق ، وسلاحه الجنس والغناء ، ولكنها على الرغم من ذلك ، ضحية ، ليس باستطاعتها أن تمتنع عن خطيئة الزنا ، كيف وهى بين بائع ومشترٍ يدفعانها إلى ذلك ، « وكيف تسلم القينة من الفتنة أو يمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشأ ، وهى تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها بما يصد عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب ،وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يسمع منه كلمة جد ، ولا يرجع منه إلى ثقة ولا دين ولا صيانة مروّة[2] » .

هكذا تبدو القينة ضحية نظام اجتماعى طبقى مترف ، ينظر إلى المرأة كوسيلة للمتعة الجسية ويحتبسها ويحيطها بالمناعم ، بل ويثقفها لهذه الغاية أكثر من غيرها . بل يذكر الجاحظ صراحة فى آخر هذه الرسالة أن تجارة القيان هى تجارة جنس تتستر على الزنائين ، وتتحايل على الشرع ، فالرجل الثرى يشترى الجارية ، يستمتع بها حتى يستوفى رغبته ، فإذا رغب عنها أعادها إلى المقين (مربى القيان) بثمن أقل مما اشتراها ، فيكون فرق السعرين هو أجر الزنا الذى احتمى بعقد الشراء « وهل قامت الشهادة بزناء قط فى الاسلام على هذه الجهة ؟[3] » .

وتتجلى سخرية الجاحظ ، سخرية ممزوجة بالحزن النبيل ، حين يشير إلى أن القينة التى تحاول أن تحافظ على عفتها وتمنع يد اللامسين والعابثين ، لن يكون باستطاعتها أن تتقن صناعتها ، فالقائمون على فن الموسيقا والغناء لن يمنحوها أسرار الصناعة إلاّ إذا أباحت نفسها لهم . ويتصاعد أسى الجاحظ حين يوازن بين شخصه ، وهو العالم الذى يقصد من الآفاق ، والقينة الجميلة ، ويكشف ساخرا عن القدر المشترك بينه وبينها ، وكل منهما يقصد ، ويزار ولا يكلف الزيارة ،

---

(١) كتاب القيان ص ١٧٤ ، ١٧٥ .
(٢) كتاب القيان ص ١٧٦ .
(٣) كتاب القيان ص ١٨٠ .

ويهدى إليه لا تقتضى منه الهدية ، ويأتى الفرق الفادح فى معاناة الحياة ، وأرق الليل وتصدع الكبد ، ثم فى حجم الهدية ووجه الاستمتاع بها ، وهنا سيكون تاجر القيان أكثر فوزا بمتاع الحياة لا شك ، فكل ما يقدم لجواريه ينتهى إلى جيبه بالطبع !!

وفى « مفاخرة الجوارى والغلمان » تستمر مواجهة الواقع السلوكى الاجتماعى فى مجال الحب ، والعلاقات الجنسية ، بنفس الصراحة التى لمسناها من قبل ، والتى تهدف إلى تعرية التأدب المصطنع ، وإن كان يقرر فى بداية رسالته أن لكل نوع من العلم أهلا يقصدونه ويؤثرونه ، وهذا يعنى أن اللغة المكشوفة التى كتب بها رسالته لم يوجهها إلى العامة ، بل إلى أهل هذا العلم ، ويشير إلى ما أنشده عبد الله بن عباس من شعر يتضمّن ألفاظا جنسية صريحة ، وهو محرم فى المسجد الحرام !! ثم يقول :

« وبعض من يظهر النسك والتقشف إذا ذكر ... و ... تقزز وانقبض . وأكثر من تجده كذلك فإنما هو رجل ليس معه من المعرفة والكرم ، والنبل والوقار ، إلاّ بقدر هذا التصنع[1] » ، ويذكر كيف كان فضلاء الصحابة لا يتحرجون من استعمال الألفاظ الجنسية الصريحة : « وإنما وضعت هذه الألفاظ ليستعملها أهل اللغة » !! والحق أن الحديث الذى استدلّ به ، وبعض ما نسب إلى صحابة الرسول مرتبط بمواقف انفعالية يغلب عليها طابع مجابهة الخصم والرغبة فى تجريحه ، ومن ثم فإن ذلك ليس حجة للقول بأن من حق هذه الألفاظ المشينة أن تتداول فى غير مجال التعبير الفنى لدواعيه الملحة ، كما حدث فيما أنشد ابن عباس من شعر ليقرر المبدأ من الوجهة الشرعية وليس من الوجهة الاجتماعية الأخلاقية .

وهذه الرسالة القائمة على الحوار الجدلى بين « صاحب الغلمان » و « صاحب الجوارى » ، هى فى حقيقتها حوار بين من يدافع عن المثلية الجنسية ، ومن يفضل الأنثى ، وكل ما عدا ذلك من حجج وأوصاف إنما أراد بها الجاحظ أن يخفف به من وقع التوجه المباشر لتصوير وتبرير هذا الانحراف الخلقى من وجهة نظر القائلين به .

لقد احتج صاحب الغلمان ، بأن الغلام مثال للحسن تشبه به المرأة ، وأنه ورد فى القرآن جزءا من نعيم الجنة ، وأنه لن يدخل الجنة إلاّ أمرد ، وإذا كان قدماء الشعراء قد تغنوا بجمال المرأة ، فلأنهم أعراب أجلاف ، ولم يروا غلمان هذا العصر .. إلخ واحتج صاحب الجوارى بأن المرأة هى الحور العين ، وأن الزواج سنة ، وأن ريح المرأة أطيب إلخ[2] .

ولسنا نقول بأن الجاحظ يدافع عن المثلية الجنسية ، ولكنه عاش عصر الشذوذ ، ورأى انتشار الغلمان والقيان ، وكيف غصت أنحاء بغداد بهم ، وكيف ازدحمت المجالس بأخبارهم

---

(١) مفاخرة الجوارى والغلمان ص ٩٢ .

(٢) مفاخرة الجوارى والغلمان ص ١٠٤ .

وما قيل فيهم من أشعار ، فالتفات الجاحظ إلى هذا الأمر هو التفات إلى ظاهرة من ظواهر العصر ، يأبى عليه حسه اليقظ واهتمامه بالإنسان ، وبالحيوان فى داخل الإنسان ، وبعقله المتسائل المجادل أن يهملها وكأنها لم تكن ، مع خطر أثرها ، وظهور هذا الأثر فى السلوك العام ، وفى المقاييس الأخلاقية ، وفى فنون الأدب على اختلافها[1] .

ويعتبر كتاب « المحاسن والأضداد » بمثابة تطبيق فنى لآراء الجاحظ فى العشق ، فهو داء يصيب الروح ، فيشعل فيها شتى الرغاب الخيرة والشريرة حسب طبائع الأشخاص وظروف التنشئة وفرص العلاقة وامكان الحركة ، ويربط الجاحظ بين العشق وحدة الخاطر وقدرةالبديهة والجرأة على رفض العرف الشائع ونفاذ الحيلة ،وهكذا سنواجه أبياتًا من الشعر المكشوف للشواعر والقيان الماجنات ، كما سنصادف كثيرًا من الإجابات المسكتة تلقى على البديهة ، كما سنجد العلاقات الشاذة فيما بين النساء ، ومحاسن الغدر والمكر ، وسنجد مساوىء ذلك أيضًا . ولسنا نحب أن نتوسع فى الاقتباس من هذا الكتاب ، فنحن لا نثق فى نسبة كل ما فيه إلى الجاحظ ، إذ لا يعكس خصائص أسلوبه واتجاه فكره ، وإن استهدى اتجاهه العام فى عناوين مسائله ، ففى النسخة المتوفرة بين أيدينا تداخل واستطراد على أسلوب « ألف ليلة » فى بعض القصص ، وفى بعض آخر يتجلى أسلوب الحكاية الشعبية ، وهو أمر تنفيه طبيعةالجاحظ العقلية ، بل يقسم كسرى فى إحدى هذه القصص بعهد الله وميثاقه وذمة أنبيائه ، ويكتب بخطه عهدًا يبدؤه بالبسملة !! ومهما يكن من أمر فإن الاتجاه العام لهذه الحكايات الكثيرة لا يخرج فى إطاره عن تلك الآراء والتحليلات الجريئة للعواطف البشرية ، وبخاصة فيما يتعلق بالجوارى وطموحهن وحيلهن ، ويكفى ما كتبه عن « الخيزران » أم الهادى والرشيد ، وإشارته إلى ما حلمت به فى صباها المبكر ، ليؤكد رأيه . وخلاصة القول أن الجاحظ كتب عن العشق ، فى مستواه الذى يلهب الجسد ويثير الدماء ، ويدفع إلى تجاوز السوية والاعتدال ، ليس فى طريق السمو ، بل فى طريق ارواء الغرائز وإشباع الهوى ... لقد كتب عن العشق البشرى ، بكل ما يتعلق به من ميول دنيا ، ولم يكتب عن الحب ، ومن ثم لم يكتب عن العشق فى مستواه الرفيع ، حين يتحول الشعور إلى فكرة ، وعقيدة ، وحلم يستأثر بالنفس ، ويصير غاية فى ذاته ، وتهون دونه كل لذائذ الحياة .

ابن حزم والتوازن الرهيف :

حين يكون الحب هو القضية فإن « طوق الحمامة » هو الكتاب المفضل لدى الدارسين ، ولم يحظ كتاب فى الحب بهذا القدر من الاهتمام وإعادة النشر والتحقيق وكتابة الدراسات

---

(١) وقد ظهر أثر كتابات الجاحظ واضحا فيما تلاه من عصور ، فنقل عنه صاحب « منازه الأحباب ومنازل الألباب » وعقد صاحب « رشد اللبيب » بابا فى المفاخرة بين الجوارى والغلمان .انظر المخطوطتين .

حوله ، ولعل ابن حزم ، ففيه الأندلس الظاهرى ، قد نال به من الشهرة ما لم ينله بكتاب آخر ، على تعدد كتبه ، وخطورة ما اقتحمت من قضايا العقيدة والشريعة .

وهذه الشهرة التى نالها الكتاب وصاحبه ترجع – فى رأينا – إلى أن ابن حزم قد استطاع أن يحقق فى كتابه من التوازن الدقيق ما عجزت عنه كتب أخرى سبقته أو لحقته فى نفس موضوع الحب ، فتطور بعضها فى طريق اختيار النصوص الشعرية ، وسردها مع قليل من التعليق ، وملأت قصص العشاق والزهاد كتبًا أخرى ، قد تجد فيها المغزى والدلالة بإعمال الفكر والاستنباط ، وترهل بعض ثالث فى طريق الاستطراد وتصيد الغرائب دون منهج أو هدف محدد . وكتاب « الزهرة » نموذج مناسب للانحراف نحو الأدب ، أما « مصارع العشاق » فهو مثال لتسجيل القصص وحكاية النوادر ، ويشاركه « ذم الهوى » فى خاصيته تلك ، أما « تزيين الأسواق » فهو خير ما يعكس ضخامة الحجم وضياع الهدف ، إلاّ أن يكون الهدف هو الاستطراد حول الحب والعشق بشكل عام .

أما التوازن الذى تحقق فى « طوق الحمامة » فيتجل فى ثلاثة محاور أساسية :

أولهـــا : التوازن بين الذات والغير ، أو : الأنا والآخرين .

والثانى : التوازن بين حاجات الجسد وتطلعات الروح .

والثالث : التوازن بين رعاية الواقع المباشر ، وتجاوز هذا الوقائع بشىء من التأمل الفلسفى .

وهذه المحاور الثلاثة يمكن أن تعتبر – فى نهاية الأمر – جوهر مفهوم الحب عند ابن حزم ، وسنرى إلى أى مدى توافق هذا المفهوم ، أو اختلف مع آراء سابقيه .

وبالنسبة للمحور الأول القائم على توازن الذات والموضوع ، نجد ابن حزم ، وقد اطلع على « الزهرة » لا ينحو منحاه فيعتمد على الاقتباسات الشعرية ، وإنما يجعل ذاته وتجربته الخاصة هى البداية ، ثم يوسع دائرة الذات ، فيضم إليها تجارب معاصريه ممن لاحظهم أو سمع منهم بشكل مباشر ، ولكنه يحسّ أن « الأنا والآخرين » لن تستوفى أبعاد التجربة الإنسانية فى الحب ما لم يختر شخصيات مختلفة النوع (ذكورًا وإناثًا) مختلفة الأعمار ، مختلفة الإدراك ، مختلفة الموقع الاجتماعى ما بين أحرار وعبيد : جوار وقيان ، وإن ظل حبيس طبقته المترفة ، لم يهبط إلى قطاعات المجتمع الأخرى ، كما ظل ملتزمًا بموقعه الفقهى ، فأشار إلى أمثلة من التوراة ،لكنه لم يشفعها بملاحظات أو تحليلات عن معاصريه أو مواطنيه من غير المسلمين .

ومن الحق ما لاحظه جارسيا جومس أن ابن حزم يهتم فى كتابه هذا بالإنسان ، وقلما يعنى بالكتب(١) ، ولكنه الإنسان فى حدود ما قررناه ، وقد رفض منذ البداية أخبار الأعراب

---

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة ص ٢٩٨ .

والمتقدمين ، وتعليله لرفض التعويل عليهم بقوله : « فسبيلهم غير سبيلنا » قد يشعر بالزراية عليهم والاستهانة بهم ، ولم يكن ابن حزم بعيدًا عن مثل هذا الشعور ، ولكن الثمرة الإيجابية لرفض الاعتماد على الرواية تتجلى فى البديل : « والذى كلفتنى لابد فيه من ذكر ما شاهدته حضرتى ، وأدركته عنايتى ، وحدثنى به الثقات من أهل زمانى » ؛ فكأن ابن حزم يضع أساسًا مهمًا ، وهو أن التجربة العاطفية فردية فى جوهرها ، ولا تتكرر ، وإن تشابهت حكايات المحبين ومواقف العشاق فهو الشبه الخارجى ، ولا مفر من الوقوف عند كل حالة بذاتها ورعاية ملابساتها ، وإذا صح ذلك ، وهو صحيح ، فمن باب أولى سيختلف معنى الحب وطرق التعبير عنه من عصر إلى آخر ، ومن هنا يظهر عجبه عندما يقرأ أن نساء الأعراب لا يقنعن ولا يصدقن عشق عاشق لهن حتى يشتهر ، ويكشف حبه ، ويقول : ولا أدرى ما معنى هذا ، على أنه يذكر عنهن العفاف ، وأى عفاف مع امرأة أقصى مناها وسرورها الشهرة فى هذا المعنى ؛ وإذ يذكر قتل أحمد بن مغيث واستئصال أسرته لتغزله بإحدى بنات الخلفاء ، فإننا نذكر تغزل أكثر من شاعر مشرقى بابنة معاوية ، وحيله المختلفة لتكذيب الغزل دون أن يركب الشطط .

هكذا سيختلف حال المحبين ، وتبقى حقيقة الحب الخالدة ومن ثم فإن التعويل على الثقات من أهل زمانه ، اعتراف بأثر الزمن والتطور الاجتماعى ، واعتراف باختلاف البيئات وأثر هذا الاختلاف على العلاقات العاطفية ، ولهذا لا نجد فى كتابه أمثلة من المشرق ، ولم يذكر ابن داود إلاّ ليخالفه فى تصور ماهية الحب وأسبابه البعيدة[1] ، ومن هنا تتكرر فى كتابه : « وعنى أخبرك » و« لقد علمت » و« أنى لأعلم » و« لقد شاهدت » فضلاً عن القطع الشعرية المتناثرة على مساحة الكتاب ، وكلها له ، وسواء كان يدلى بتجربته المباشرة ، أو ينقل عن بعض محدثيه فإن درجة حضوره فى الإقتناع بمفهوم الحب وأنواعه وحيله واضحة جدًا ، ولكن ليس بالدرجة التى يمكن أن يوصف بها « طوق الحمامة » بأنه ترجمة ذاتية لمؤلفه ، فإن هذه الذات كثيرًا ما كانت تتوارى خلف موضوعية التجربة العاطفية فى استقلالها حتى عن شخص المباشر لها ، فى نموها ومراحلها وتحليل جوانبها المختلفة .

وإذا كانت كلمة « العذرية » لم ترد فى كتاب ابن جزم ، ولم يعن بحب المتصوفة ومن على شاكلتهم ممن يعتبر الحب ضربًا من الحرمان يطهر الروح ، فإنه لايوضع مع كتابات الجاحظ فى نفس الموقع .. لقد أعطى حاجات الجسد قدرها ، ولم يسخره الواقع ويدفع به فى تياره

---

(١) هناك استثناء طفيف لا يخل بهذا الملمح العام ، فى إشارته إلى نزار بن معد صاحب مصر وبعض فقهاء المدينة (ص ٢٠ ، ٢١) وانظر المرجع السابق ص : ٢٥ ونضيف إليه إشارة ابن حزم إلى ما كان بين أبى نواس والأمين ، الذى يدعوه : محمد بن زبيدة ، والنظام رأس المعتزلة وغيرهما ، انظر الطوق ص ٦٣ ، ١٧٠ وهذا مما لا يختص بالنساء .

فينسى واجب العفة وحق الوفاء ، هذا فضلاً عن أن « الواقع » الذى يستمده ابن حزم يختلف كثيرًا عن الواقع الذى يصفه الجاحظ ، ومن هنا جاءت نظراته عن الحب بعيدة عن التهويم والتأمل المثالى بعدها عن الخضوع للشهوة واستعباد الجسد وسطوة الغريزة ، جاءت مرتبطة بالواقع والقدرة على ملاحظته وتحليله . من ذلك مثلاً فكرته عن الوفاء ، وعن العفة ، وهذه الفكرة صادرة عن تصوره للطبيعة الإنسانية ، وتكوينها من عناصر الخير والشر : « وإنى لأسمع كثيرًا ممن يقول : الوفاء فى قمع الشهوات فى الرجال دون النساء ، فأطيل العجب من ذلك ، وان لى قولاً لا أحول عنه : الرجال والنساء فى الجنوح إلى هذين الشيئين سواء . وما رجل عرضت له امرأة جميلة بالحب ، وطال ذلك ، ولم يكن ثم من مانع إلاّ وقع فى شرك الشيطان ، واستهوته المعاصى ، واستفزه الحرص ، وتغوله الطمع . وما امرأة دعاها رجل بمثل هذه الحالة إلاّ وأمكنته ، حتمًا مقضيًا ، وحكمًا نافذًا لا محيد عنه البتة » . وهذه النظرة الواقعية للسلوك الإنسانى ، ونزوع الذكر إلى الأنثى ، وتشوق الأنثى للذكر ، لا تحول بينه وبين الإيمان بوجود العفة ، ووجود الصلاح فى الرجال والنساء على حد سواء ، ولكن بالشرط الذى سبق ، وهو البعد عن دواعى [illegible] : « وشىء أصفه لك تراه عيانًا ، وهو أنى ما رأيت قط امرأة فى مكان تحسّ أن رجلاً يراها ، أو يسمع حسها ، إلاّ وأحدثت حركة فاضلة كانت عنها بمعزل ، وأتت بكلام زائد كانت عنه فى غنية ، مخالفين لكلامها وحركتها قبل ذلك ، ورأيت التهمّم لمخارج لفظها وهيئة تقلبها ، لائحًا فيها ، ظاهرًا عليها لا خفاء به ، والرجال كذلك إذا أحسوا بالنساء . وأما إظهار الزينة ، وترتيب المشى ، وإيقاع المزاح عند خطور المرأة بالرجل ، واجتياز الرجل بالمرأة ، فهذا أشهر من الشمس فى كل مكان » .

وينتهى ابن حزم من هذه الملاحظات والتحليلات الدقيقة إلى تقرير رأيه فى معنى الصلاح ، ويرفض التفسيرات الشائعة الجانحة إلى التطرف فى معنى هذه الكلمة ، « والصحيح فى حقيقة تفسيرها أن الصالحة من النساء هى التى إذا ضبطت انضبطت ، وإذا قطعت عنها الذرائع أمسكت . والفاسدة هى التى إذا ضبطت لم تنضبط ، وإذا حيل بينها وبين الأسباب التى تسهل الفواحش تحيلت فى أن تتوصل إليها بضروب من الحيل . والصالح من الرجال من لا يداخل أهل الفسوق ، ولا يتعرض إلى المناظر الجالبة للأهواء ، ولا يرفع طرفه إلى الصورة البديعة التركيب ، والفاسق من يعاشر أهل النقص ، وينشر بصره إلى الوجوه البديعة الصنعة ، ويتصدى للمشاهد المؤذية ، ويحب الخلوات المهلكات » .

فهذا كلام ليس فى الحب ، وإنما فى السلوك الجنسى ، وتوقى الخطيئة الجنسية على التحديد ، وقد كتبه رجل لمجتمع الرجال فيه قوامون على النساء ، ولهذا يسند إلى الرجل مهمة ضبط المرأة ، دون أن يعطى المرأة نفس الحق . وننبه هنا أيضًا إلى أن قصص الحب المأثورة تهتم عادة

بالمحب دون المحبوب ،فأخبار ليلى لا يمكن أن تقاس إلى أخبار قيس ، وكذلك الأمر بالنسبة لجميل وبثينة ، ومن على شاكلتهما ، وسنرى أن المحب هو محور الاهتمام دائمًا ، وقد يعلل ابن داود ذلك –كما سنرى أيضًا –أنه وحده يلزمه الوفاء إذ هو المتعلق المقبل اختيارًا أو اضطرارًا ، أما المحبوب فإنه لا حيلة له فى أن صار محبوبًا ، ومن ثم لا يلزمه شيء ، فهو مجرد حافز أو مثير ليس غير ، أما ابن حزم فإنه يرى ذلك أيضًا ولكنه يقرر المبدأ العام أولاً : « وأول مراتب الوفاء أن يفى الإنسان لمن يفى له ، وهذا فرض لازم ، وحق واجب على المحب والمحبوب ، لا يحول عنه إلا خبيث المحتد ، لا خلاق له ولا خير عنده » . ورعاية لهذا المعنى فإن أخباره لا يلعب فيها المحب الدور الأوحد ، أو الأساسى دائمًا ، وإنما يأخذ فيها المحبوب مكانًا بارزًا ،وبإرادة واضحة ، حتى وإن كان المحبوب جارية مملوكة ، يمكن اجبارها أو التخلص منها .

وإذا كانت واقعية النظرة إلى الحب قد هدت ابن حزم إلى أن الحب لا يقوم إلاّ بين اثنين ، وأنها متشابهان رغبة وتطلعًا ، فإن هذه الواقعية ذاتها جعلته يفرق بين غرائز الأنثى وتوجهاتها وبين غرائز الرجل واهتماماته ،وهذا تابع لتوزيع العمل فى النظام الاجتماعى ، وحرية الحركة ، ودرجة التشدد أو التسامح الأخلاقى الذى يعامل به كل منهما . فتحت عنوان : « باب من أحب بالوصف » يقرر أن الحب بالوصف مجرد نقطة بداية لابد أن تتحرك فتنمو أو تموت ، ثم يقول : « وأكثر ما يقع هذا فى ربات القصور ، المحجوبات من أهل البيوتات مع أقاربهن من الرجال ، وحب النساء فى هذا أثبت من حب الرجال ، لضعفهن وسرعة إجابة طبائعهن إلى هذا الشأن ، وتمكنه منهن » . ولسنا نوافق على تفسير « محجوبات » بمعنى مترفات غير مضطرات لمغادرة بيوتهن لطلب الرزق[1] ، والكلمة متضمنة لهذا المعنى على كل حال ، ولكنها إذا حصرت فيه بطل التعليل ، فالحق أن المخيلة تبلغ قمة نشاطها حين لا تجد النفس ما يشغلها ويجيب على تطلعاتها واقعيًا وسلوكيًا ، وكما كان الأدب الرومانسى وليد العزلة والتخيل معًا ، فكذلك فتيات الطبقة الراقية فى مجتمع الحريم والقصور ، حين يحال بينهن وبين الخروج إلى الحياة والاختلاط بالآخرين ، تتراجع التجربة الحياتية وينشط التأمل وتمتلىء النفس بالأوهام ، وإذا لم يكن الحجاب هنا بمعنى العزلة بين الرجال والنساء ، أو يتضمن هذا المعنى ، فكيف ينشأ الحب على الوصف أصلاً ؟ !

ويرتبط نشاط المخيلة عند المرأة فى هذا المجال بوضعها الاجتماعى وطبيعة عملها كما قدمنا ، وينصّ ابن حزم على ذلك ، ويربطه بنتائجه من رغبة المرأة ، مهما كان فضلها وفضيلتها وعمرها وطبقتها ، أن تشغل نفسها بأمور الحب ، تمارسه ، أو تعين عليه بأى شكل كان : « وإنك

(١) دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة – ص ٢٥٨ .

لترى المرأة الصالحة المسنة ، المنقطعة الرجاء من الرجال ، وأحب أعمالها إليها ، وأرجاها للقبول عندها ، سعيها فى تزويج يتيمة ، وإعارة ثيابها وحليها لعروس مقلة . وما أعلم علة تمكن هذا الطبع من النساء إلاّ أنهن متفرغات البال من كل شيء ، إلاّ من الجماع ودواعيه ، والغزل وأسبابه ، والتآلف ووجوهه ، لا شغل لهن غيره ، ولا خلقن لسواه . والرجال مقتسمون فى كسب المال ، وصحبة السلطان ، وطلب العلم ، وحياطة العيال ، ومكابدة الأسفار ، والصيد ، وضروب الصناعات ، ومباشرة الحروب ... إلخ » . فكأنه لا يقول بالغرائز الفطرية على إطلاقها ، وإنما يشرك معها ، أسلوب تقسيم العمل فى الجماعة ، بل تكاد كلماته تجعل هذا العامل هو الفارق الحاسم المؤثر فى تكوين الطباع وتوجيه الاهتمام . ويذكرنا هذا بكلمة للجاحظ جاءت فى « رسالة فى العشق والنساء » تقول : « رجلان لا يعشقان عشق الأعراب : أحدهما الفقير المدقع ، فإن قلبه يشغل عن التوغل فيه وبلوغ أقصاه ، والملك الضخم الشأن لأن فى الرياسة الكبرى وفى جواز الأمر ونفاذ النهى وفى ملك رقاب الأمم ما يشغل شطر قوى العقل عن التوغل فى الحب والاحتراق فى العشق[1] » . فإذا كان النساء غير الرجال لأسباب عملية فإن الرجال ليسوا جميعًا على وتيرة واحدة لنفس الأسباب .وقد نتمادى مع هذا التصوير لابن حزم ، فنزعم أن المرأة التى تحترف مهنة يختص بها الرجال ، وقد تضطرها إلى مخالطتهم بإسراف ، قد تأخذ جانبًا من نظرتهم إلى عاطفة الحب ، وكذلك الرجال الذين يمتهنون أعمالاً ناعمة ، هى من صميم النشاط النسوى ، ولعلها تضطرهم للمعايشة المستمرة للنساء ، قد يأخذون بنصيب كبير من لغة المرأة وتطلعاتها ، وحكمها على الأشياء ، فضلاً عن عواطفها تجاه الآخرين . وإذا كان العلم قد أثبت أن الرجل ينطوى على نسبة من هرمونات الأنوثة ، وكذلك الأمر بالنسبة للمرأة فى وجود هرمونات ذكورة ، فإن النسبة تختلف ، فترتفع عند بعض ، وتنخفض عند آخرين . وهذا يعنى فى النهاية أن « المهنة » هى التى تختار الشخص ، أكثر مما يختارها .

ويسجل ابن حزم للنساء القدرة على حفظ أسرار العشاق ، وهو امتداد طبيعى لإنشغالهن السابق ، وليس هذا عند الرجال ، « وما رأيت امرأة كشفت سر متحابين إلاّ وهى عند النساء ممقوتة مستثقلة » ، وسيقابل هذا عند الرجل ما ترى من أنفته من تزويج ابنته أو أمه .

ويقر ابن حزم للمرأة بالحساسية الشديدة فى التقاط أية كلمة أو حركة هاجسة تدل على ميل الرجل إليها : « واعلم أن قيافة النساء فيمن يميل إليهن أنفذ من قيافة مدلج فى الآثار » .

وتتردد أصداء الفعل الجنسى ، وحيل العشاق وأفانينهم للحصول على ملاذه فى هذه الأخبار التى تتقاطر على صفحات الكتاب ؛ ولا يسوقها ابن حزم سوق الأخبار المقررة ، بل يسبكها

(١) رسالة فى العشق والنساء : ص ١٦٦ .

فى سياق ينمّ على تذوقه للمغامرة ، ومعايشتها تخيلا وشعورا ، فتأمل دلالة الخبر ، ثم تأمل أسلوب صياغته .

« فهذه فتاة - أو جارية كما يقول - اشتد وجدها بفتى من أبناء الرؤساء ، وهو بغرارة الصبا لا يشعر ، ويمنعها من ابداء أمرها إليه الحياء منه ؛ « لأنها كانت بكرا بخاتمها » ، فلما تمادى الأمر ، وزاد الشوق عرضت له بالشعر فما نفعها الشعر ، وضاق صدرها ولم تمسك نفسها فى قعدة كانت لها معه فى بعض الليالى منفردين ، ولقد كان يعلم الله عفيفا متصاونا بعيدا عن المعاصى ، فلما حان قيامها عنه بدرت إليه فقبلته فى فمه ، ثم ولت فى ذلك الحين ولم تكلمه بكلمة ، وهى تتهادى فى مشيتها »

« وهذا فتى آخر وجارية أخرى ، وكان يكلف كل واحد منهما بصاحبه ، فكانا يضطجعان إذا حضرهما أحد ، وبينهما المسند العظيم من المساند الموضوعة عند ظهور الرؤساء على الفرش ، ويلتقى رأساهما وراء المسند ، ويقبل كل واحد منهما صاحبه ولا يريان ، وكأنهما إنما يتمددان من الكسل . ولقد كان بلغ من تكافيهما فى المودة أمر عظيما ، إلى أن كان الفتى المحب ربما استضاف عليها !!

فهذه بعض أخبار ، تقوم على طغيان الرغبة الجنسية ، وتحايلها ، وكما تشى بارتياح الكاتب لها ، وعدم نفوره أو رفضه لها ، فإنها تدل على مدى الحرية التى كان الفتيان والفتيات يستمتعون بها ، وحين نتصور بعض هذه الأخبار نجد ما فيه من استحالة التحقق مع وجود آخرين ، فكيف تتم القبلة خلف مسند ، وكيف يمكن للفتى أن يستطيل على الفتاة ، متجاوزا القبلة ؟ ! إلا أن يكون تسامح الطبقة المترفة مع أبنائها قد أباح التغاضى عن مثل هذه الأشياء ، ولعل « طوق الحمامة » يعطى هذا الانطباع بالفعل .

وهناك أخبار أكثر حدة وانكشافا من هذه الحركات المراهقة التى يقوم بها فتى وفتاة ، لا يعنينا أن نتوقف عندها ، غير أننا نخلص منها إلى أن ابن حزم يرى أن التوافق والإشباع الجنسى من أهم المسالك المؤدية إلى الرضا النفسى والمحبة ، وهو بهذا يخالف تماما أولئك الذين فرقوا بين الحب والشهوة ، ولقد رأى - كما دل كلامه من قبل - أن النفس تمثل الهوى والأمر بالسوء ، ولكنه يستعمل كلمة « الحب » فى مقام الحاجة الجنسية والرغبة دون أن يقلق على دلالة الكلمة .

تلك إذن حاجات الجسد يسجلها ابن حزم بلا تحرج ، يعتبرها صورة من صور الحب أو أشكاله ، أو طريقا إليه . بل يسجل حاجات الجسد الشاذة التى تنحرف به عن نداء الطبيعة السوية ، فالرابطة هنا قوية بين ابن حزم وكتابات الجاحظ التى اتخذت الواقع - أو جانبا منه

– مصدرا أساسيا لتصوير الحب وأفاعيله فى النفوس ، ولكننا نقول بأن ابن حزم يختلف عن الجاحظ فى تناوله لموضوع الحب ، لقد كان الجاحظ يأتى على كل ما يزيد من أخبار فاحشة وكلمات مكشوفة ، ويستغفر الله فى ختام الرسالة ، أما ابن حزم فإن شخصية الفقيه لم تفارقه فى ثنايا كتابه ، وقد امتزج فقهها بقدر من الفلسفة يستدعيه الموضوع ، ويتمثل ذلك فى تصوره لأسباب الحب وأطواره وعلاماته وآفاته . وفى هذا الجانب يقترب ابن حزم من إطار النظرية العامة فى الحب العفيف ، أو الحب العذرى ، وقد يكون من الخير أن نتعرف عليه مع من سبقوه إلى اكتشاف معالمها .

وفى هذا الملمح الأخير يتجلى التوازن الثالث بين رعاية الواقع المباشر ، وتجاوز هذا الواقع بالتأمل الفلسفى والتحليل النفسى . وبالنسبة للواقع المرحلى الذى عاشه ابن حزم فقد أمده هذا الواقع بأكثر أمثلة كتابه ، ولكن نزعته الفقهية الجدلية ، القائمة على تقصى المسائل ، وتفتيت الكل إلى أجزائه ، وتجميع الأجزاء فى رؤية كلية ، قد أعانته على تصورات لم تتداول قبله ، وقد يشير بعض الباحثين إلى التسلسل المنطقى فى عرضه لمادة كتابه ، وتناوله للموضوع ، كما تتبدى عقليته السيكولوجية فى كونه يربط الحب بالزمان ، فيرفض القول بإمكان الحب من أول نظرة ، ويرى أنها الشهوة وليس الحب ، أما الحب المتمكن فيحتاج إلى الزمن الطويل ، وملازمة المحب للمحبوب ، ومشاركته فى تقلبات حالاته[1] . وقد سبق ابن داود إلى معالجة هذا الأمر تحت عناوين مختلفة ، عن بداية الحب وأطواره وحالاته ، كما عرفنا .

وفى باب : « من أحب صفة لم يستحسن غيرها مما يخالفها » ، يشير ابن حزم كيف تتحكم التجربة العاطفية الأولى فيما يعقبها من تجارب ، فيخبر عن نفسه أنه أحب فى صباه جارية شقراء الشعر ، فما استحسن بعدها سوداء الشعر مهما كانت درجة حسنها ، ويخبر عن أصدقائه من أحب ذات جيد فيه بعض الوقص ، فما استحسن بعدها غيداء أبدا ، ومن أحب فتاة قصيرة فما أحب طويلة أبدا ، ومن هوى جارية فى فمها فوه لطيف ، فعاش يتقذر كل فم صغير ، وهو بهذه الملاحظة التحليلية الذكية « يكاد ينص على ما اصطلح علماء التحليل النفسى اليوم على تسميته باسم التثبيت ، وهو عبارة عن ارتباط المرء فى صباه بشخص أو شىء ارتباطا وثيقا ، بحيث يدوم هذا الارتباط حتى بعد انتقاله إلى مرحلة النضج النفسى أو البلوغ العاطفى »[2] .

وهذا التفسير هو الذى دلت عليه التجربة وأكده الطبع فى الف الإنسان وتعلق وجدانه بمشاهداته الأولى التى تصادف نفسا فارغة وقلبا خاليا ، أو ترتبط الأشياء فى لا شعوره بمناسبة

---

(١) ابن حزم الأندلسى ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) ابن حزم الأندلسى ص ٢٤٥ والمرجع المبين بهامشها .

قوية لا يسهل التخلص من أثرها . وهناك تفسير آخر يقوم على تقسيم الرجال فى مسلكهم تجاه الحب إلى شخصيات نمطية يشكلها المجتمع ، وترتبط عواطفها بنظام الزواج والأسرة ، وهذه الشخصيات تهتم بالاستقرار والاستمرار ، وشخصيات أخرى شعارها الـ « دونجوان » فى توتر حبه وتوهجه وتنقله الدائم ، فهما نقيضان فى الطباع ، ولكن قد تتوق الشخصية الدونجوانية إلى نوع من الوفاء والاستقرار ، تظن ذلك سيجلب لها الراحة والخلاص ، وهنا يحدث نوع من الاختيال إذ يعشق الدونجوان عددا من النساء تمثل كل واحدة منهن نسخة عن سابقتها ، وكأنه بذلك قد حقق الوفاء للصفة المشتركة فيهن جميعا واستمر – مع هذا – فى تنقله ، ومن هذا القبيل قول الشاعر :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلاّ للحبيب الأول(١)

والتعليل النفسى عندنا أصدق ، لأنه يتصف بالشمول ، وقد يصح هذا القول الآخر فى حالات معينة من العشق ، وليس في كل حالات العشق ، أما التثبيت فهو فى العشق وغيره ، وكلنا نلحظه فى ميولنا فى اختيار ألوان الثياب ، وأنواع الطعام فضلا عن العلاقات الإنسانية كاختيار الأصدقاء ، وما إلى ذلك مما ينشأ عليه المرء ويتعلق به من قديم . ومهما يكن من أمر التفسير فإن ملاحظة صاحب الطوق صحيحة .

وقد قدم ابن حزم من خلال ما روى من أخبار ، عددا وافرا من الأنماط البشرية والأمراض النفسية ، فى عبارات وصفية صادقة وموجزة ، فهذا رجل منتبذ ناحية ، يتكشف – فى رأى الخبير – عن عاشق ، وليس بمريب ؛ « لبهت مفرط ظاهر على وجهه فقط دون سائر حركاته » . وهذا الشاعر الرمادى (يوسف بن هارون) يرى جارية فيعلق بها قلبه من أول نظرة (يروى ابن حزم خبره رغم رفضه القاطع للحب من أول نظرة) ويجرى بينهما الحديث هامسا حييا عذبا ، وتمنحه اسمها وعدها بلقائه فى نفس المكان والساعة كل جمعة ، وتمضى ، ثم لا يقع لها على أثر ، فتأخذ بمجامع قلبه ، « وهى خلوة التى يتغزل بها فى أشعاره » . فهل صادفها الرمادى حقا ، أو هو حلم من أحلام اليقظة ؟ ! ، وهذا صاحب القطوب الدائم « ولاسيما مع النساء » يكرهنه لقلة حلاوة شمائله ، فما إن يحدث اللقاء حتى يتحولن إلى الضدّ ، ويبقى صاحبنا على حاله !! ، وهذا مقدم بن الأصفر أيام حداثته ، يعشق فتى ، فيهجر الصلاة فى مسجد منطقته ، ويسعى إلى منطقة أخرى فى الليل حتى يأخذه الحرس أكثر من مرة ، وحتى يضربه الفتى المعشوق . وهذه امرأة جليلة ، وعلى جلالها وحفظها لكلام الله تتستر على العشاق ، وتأمل لو استطاعت أن يكتمل اللقاء برعايتها ومالها ؛ « وأشنع ما يكون الرقيب إذا كان ممن

(١) فى الحب والحب العذرى ص ٦٠ – ٦٢ .

امتحن بالعشق قديما ، ودهى به ، وطالت مدته فيه ، ثم عرى عنه بعد إحكامه لمعانيه ، فكان راغبا فى صيانة من رقب عليه ، فتبارك الله أى رقبة تأتى منه ، وأى بلاء مصبوب يحل على أهل الهوى من جهته » ، فهذا المحب المفلس هو أكثر العشاق ضراوة حين يتحول إلى حارس للأخلاق .

وهذه بنت زكريا بن يحيى المعروف بابن برطال ، كانت متزوجة بيحيى بن محمد ، « فعاجلته المنية وهما فى أغض عيشهما ، وأنضر سرورهما ، فبلغ من أسفها عليه أن باتت معه فى دثار واحد ليلة مات ، وجعلته آخر العهد به وبوصله ، ثم لم يفارقها الأسف بعده إلى حين موتها » . فانظر كيف ربط ابن حزم بين العمر الغض والسعادة النضرة ، وبين الحزن الفاجع والموت ، ربط النتيجة بالمقدمة ، وغير ذلك عشرات ، بل مئات من اللفتات الذكية العابرة ، والشخصيات الحية التى تمور بحرارة الحياة والتهاب العاطفة والرغبة فى المتعة ، مما يمكن أن يصنع فى النهاية سلسلة متدرجة من الطباع ومناحى السلوك والتصورات الأخلاقية ، تستوفى الأنماط البشرية فى أغلب أحوالها ،وبخاصة فيما يتعلق بهذه العاطفة : عاطفة الحب .

وفى ختام هذه الرحلة القصيرة مع ابن حزم ، يمكننا أن نجمل نظرته للحب ، بشكل يوضح الفرق بين رأيه ، وآراء سابقيه تجاهها : ليس الحب عنده فكرة تأملية ورياضة روحية ، وليس صفة يتحلى بها الظريف بقصد استكمال شخصيته الاجتماعية والإعلان عن كياسته ورهافة ذوقه . الحب عند ابن حزم تجربة شخصية مباشرة ، شديدة الخصوصية ، تنهض بين طرفين هما الرجل والمرأة ، وتستكمل نفسها بتمام لقائهما جسديا . ولهذا لا يتجاهل شخص المحبوب بدعوى أنه لا اختيار له ولا إرادة فى كونه قد صار محبوبا ، فالحب معاناة شخصين ولا يصح اطلاق الوصف إذا كان من طرف واحد ، ومن ثم فإنه ليس حقيقة ذهنية تتحقق بتوجه إرادة المحب وإخلاصه الفكر منقطعا عن تجاوب المحبوب أو عدمه ، ان المعاناة تعنى أن حقيقة الحب « توجد » ، ولأنها توجد فإنها « تتغيّر » ، و« تتحول » فيصير الحب فتورا ، وأحيانا كراهية !! ولأن الحب توجه إنسانى وليس حقيقة مطلقة فإنه يتأثر بظروف المحب ، وظروف المحبوب ، وما يكتنفهما من مؤثرات الزمان والمكان . ومع الإقرار بذاتية التجربة فى الحب ، فإن هذه التجربة تصير شيئا جديدا يتجاوز حاصل جمع مفرداتها : (المحب والمحبوب والعاطفة الناشبة بينهما) فتكتسب قدرا من الاستقلال حتى عن أطرافها الثلاثة ، بمعنى أنها قد تسوق – بقوة منطقها الخاص ، أو لنقل : قانونها الخاص – قد تسوق الرجل والمرأة إلى ما لم يكونا يقصدان إليه قصدا متعمدا . وليست الصلة الجنسية شيئًا منحطا أو دنيئا ، إنها تعبير عن شعور ، ولهذا تترك أثرا روحيا فى الإنسان مع أنها تعبير جسدى فى الظاهر ، وهذا يعنى أن التوافق تام بين الروح والجسد ، وأن رغبة أحدهما تستكمل بتحقيق رغبة الآخر .